

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ
اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا
بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]

✽ مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بعد أن ذكرت الآيات السابقة ما عليه اليهود من الطباع السيئة، والصفات المذمومة، والأخلاق المردولة، في تعاملهم مع الناس ومع أحكام الله، وذلك بالتفريق في تطبيقها على الوضع دون الشريف، وعلى الفقير دون الغني متبعين في ذلك أهواءهم؛ جاءت هذه الآية لتبين مقام التوراة قبل تحريفها، وأنها مصدر الهدى والنور؛ لأنها منزلة من عند الله، ويجب مراعاة أحكامها؛ لأنها لم تزل مرعية فيما بين الأنبياء، ومن يقتدي بهم كابرًا عن كابر، مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحاكمين، محفوظة عن المخالفة والتبديل؛ تحقيقًا لما وُصف به المحرفون من عدم إيمانهم بها، وتقديرًا لكفرهم وظلمهم⁽¹⁾.

ويقال أيضًا: بعد أن نعى الله على اليهود عدم رضاهم بحكم التوراة، وطلبهم حكم النبي ﷺ إن وافق هواهم، ثم إعراضهم عن حكمه ﷺ؛ ذكر هنا التوراة وما فيها من الهدى والنور، والحكم بها للأنبياء والرَّبَّانِيِّينَ والأحبار، وكل ذلك قبل تحريفها⁽²⁾.

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا﴾: الإنزال: مصدر نزل، وهو نقل الشيء من أعلى إلى أسفل، يُقال: نَزَلَ الشيء، يَنْزِلُ، نُزُولًا، أي: هبط وانحدر من علو إلى سفلى. وَأَنْزَلَ الشيء: جعله يَنْزِلُ. وَأَصْلُهُ: الانحطاط من علو. والتَنْزِيلُ أيضًا: الترتيب، وهو: إنزال الشيء مُرتَّبًا شيئًا بعد شيء⁽³⁾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/40، والبقاعي، نظم الدرر: 6/144، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/207.

(2) الحجازي، التفسير الواضح: 1/518.

(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نزل).

(2) ﴿التَّورَةُ﴾: قال الفراء: التَّوراة معناها: الضياء والنور، من قول العرب: قد ورَّيت بك زنادي، أي: أضاءت بك زنادي، قال: وأصل التَّوراة تَوْرِيَّةٌ، على وزن: تَفَعَّلَ، فصارت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، ويجوز أن تكون: تَفَعَّلَ فيكون أصلها: تَوْرِيَّةٌ، فتُنْقَل من الكسر إلى الفتح؛ كما تقول العرب: جاريةٌ وجاراةٌ، وناصيةٌ وناصاةٌ، وباقيةٌ وباقاءةٌ. أنشد الفراء:

فما الدُّنيا بباقةٍ لحيٍّ *** وما حيٌّ على الدُّنيا بباقي⁽¹⁾

(3) ﴿هُدًى﴾: الرِّشاد والبيان والدلالة بلطفٍ إلى ما يُوصِلُ إلى المطلوب، يُؤَنِّثُ ويُذَكِّرُ، وهو لازمٌ ومُنْعَدٌ، يُقال: هداهُ هُدىً وهدياً وهديَةً وهِداً، وللدين وإلى الدين، أي: أرشده إليه وبَيَّنَّه له، وعَرَّفَه به، وضدُّه: الضَّلالُ. ومن معانيه أيضاً: الطَّاعة، والورع، وطريق الحقِّ، وإخراج شيءٍ إلى شيءٍ، والنَّهَارُ⁽²⁾.

وذكر الرَّاغِبُ أنَّ هداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عمَّ بجنسها كلَّ مكلفٍ من العقل، والفتنة، والمعارف الصَّروية. الثاني: الهداية التي جعل للنَّاس بدعائه إياهم على السنة الأنبياء، وإنزال القرآن، ونحو ذلك.

الثالث: التَّوفيق الذي يختصُّ به من اهتدى، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [مَحَقَّد: 17].

الرابع: الهداية إلى الجنَّة، قال تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [مَحَقَّد: 5].

وهذه الهدايات الأربع مترتَّبٌ بَعْضُهَا على بعض⁽³⁾.

(4) ﴿وَنُورٌ﴾: النُّور: الضَّوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: دنيويٌّ، وأخرويٌّ، فالدُّنيويُّ ضربان: ضرب معقولٌ بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن، ومحسوسٌ بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين والنجوم والنَّيرَات.

(1) الأنباري، الرَّاهِر: 1/72، والزَّبيدي، تاج العروس: (وري).

(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، والفيروزآبادي، القاموس المحي، وابن سيده، للحكم، وابن منظور، لسان العرب: (هدي).

(3) الرَّاغِب، للفردات: (هدي).

فَمِنْ النُّورِ الإِلَهِيِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝﴾ [البائدة: 15]،
وَمِنْ الْمَحْسُوسِ الَّذِي بَعَيْنَ الْبَصَرُ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾
[يونس: 5]، وَتَخْصِيصِ الشَّمْسِ بِالضُّوءِ، وَالْقَمَرِ بِالنُّورِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الضُّوءَ أَخْصُ مِنَ النُّورِ.
وَمِمَّا هُوَ عَامٌّ فِيهِمَا قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1].

وَمِنَ النُّورِ الْآخَرِيِّ قَوْلُهُ: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: 12]. وَيُقَالُ: أَنْارَ اللَّهُ كَذَا
وَنَوَّرَهُ، وَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُقَيَّدَةِ: نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ هُوَ
الْمُنَوَّرُ، قَالَ: ﴿*اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [التور: 35]، وَتَسْمِيَتُهُ تَعَالَى بِذَلِكَ لِمَبَالِغَةِ فِعْلِهِ (1).

(5) ﴿يَحْكُمُ﴾: الْحُكْمُ: الْقَضَاءُ وَالْفَصْلُ، تَقُولُ: حَكَمْتُ بَيْنَهُمَا إِذَا قَضَيْتُ، وَيَأْتِي
الْحُكْمُ بِمَعْنَى: الشَّيْءِ الْحَسَنِ الْمُتَقَنِّ، وَالْجَمْعُ: أَحْكَامٌ، وَالْحَكِيمُ: الْمُتَقِنُ لِلْأُمُورِ، وَأَصْلُ
الْحُكْمِ: الْمَنْعُ.

وَمِنْ مَعَانِي الْحُكْمِ أَيْضًا: الشَّرْعُ وَالْإِمَامَةُ (2). وَالْحُكْمُ بِالشَّيْءِ: أَنْ تَقْضِيَ بِأَنَّهُ كَذَا أَوْ
لَيْسَ بِكَذَا، سِوَاءِ أَلْزَمْتَ ذَلِكَ غَيْرَكَ أَمْ لَمْ تَلْزَمْهُ (3).

(6) ﴿النَّبِيُّونَ﴾: النَّبِيُّ: الْمُخْبِرُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَعِيلٌ مِنَ النَّبَأِ، وَهُوَ: الْخَبَرُ وَالْعِلْمُ،
وَيُطْلَقُ عَلَى الْخَبَرِ ذِي الْفَائِدَةِ الْعَظِيمَةِ، يُقَالُ: نَبَأٌ وَنَبَأٌ وَأَنْبَأَ بِالشَّيْءِ، أَي: أَخْبَرَ وَخَبَّرَ بِهِ،
وَالْإِنْبَاءُ: الْإِخْبَارُ وَالْإِعْلَامُ عَنِ الشَّيْءِ قَبْلَ وَقْتِ ظُهُورِهِ، وَأَصْلُ النَّبِيِّ ﷺ - فِي قَوْلِ بَعْضِ
أَهْلِ الْعِلْمِ - مِنَ النَّبُوَّةِ وَالنَّبُوءِ، وَهُوَ: الْعُلُوُّ وَالْإِرْتِفَاعُ، وَالنَّبِيُّ وَالنَّبِيُّ: الْعَالِي الْمَرْتَفَعُ،
وَمِنْهُ سُمِّيَ النَّبِيُّ نَبِيًّا؛ لِإِخْبَارِهِ عَنِ اللَّهِ، وَلِرَفْعَةِ قَدْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَمْعُهُ: نَبِيُّونَ
وَأَنْبِيَاءُ (4).

(7) ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾: الْإِسْلَامُ: الْإِنْقِيَادُ وَالْإِذْعَانُ وَالْخُضُوعُ، يُقَالُ: أَسْلَمَ أَمْرُهُ، يُسَلِّمُ،
إِسْلَامًا، أَي: انْقَادَ وَخُضَعَ، وَأَصْلُ الْإِسْلَامِ: الْخُلُوصُ وَالنَّجَاةُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْإِنْقِيَادُ إِسْلَامًا؛
لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَنْجُو بِهِ، وَيَخْلُصُ مِنَ الْإِبَاءِ وَالْإِمْتِنَاعِ وَالْكُفْرِ (5).

(1) الزَّاعِبُ، الْفُرْدَاتُ: (نور).

(2) الْخَلِيلُ، الْعَيْنُ، وَابْنُ فَارِسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (حكم).

(3) الزَّاعِبُ، الْفُرْدَاتُ: (حكم).

(4) الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، وَابْنُ فَارِسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ، وَالزَّيْدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ: (نبو).

(5) ابْنُ فَارِسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، وَالزَّيْدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ: (سلم).

ومعنى ﴿أَسْلَمُوا﴾ في الآية: انقادوا لأمر الله تعالى، والعمل بكتابه.

(8) ﴿هَادُوا﴾: كلمة مشتقة من اليهود بمعنى: التوبة والرجوع، يقال: هاد، يهود، هودًا، وتهود، أي: تاب ورجع إلى الحق؛ وسُمي اليهود يهودًا، إمّا من قوله ﷺ: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156]، أي: رجعنا وتبنا، وإمّا من التهويد، أي: السكون، ويمكن أن يكونوا سُموا بالمصدر من هاد يهود هودًا، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾، قال ابن عباس: يريد تابوا، يعني: من الكفر⁽¹⁾.

(9) ﴿وَالرَّبَّنِيُّونَ﴾: جمعُ رَبَّانِيٍّ، وفيه قولان: أحدهما: أنه منسوب إلى الربِّ، وهو الكامل في العلم والعمل، الشديد التمسك بطاعة الله ﷻ ودينه⁽²⁾، والألف والنون فيه زائدتان في النسب دلالة على المبالغة، والآخر: أنه منسوب إلى رَبَّانٍ، والرَّبَّان هو مُعَلِّم الخير، ومن يسوس الناس، ويعرفهم أمر دينهم، فالألف والنون دالّان على زيادة في الوصف، كالتي في: عطشان، ونحوه، وتكون النسبة على هذا للمبالغة في الوصف نحو: أَحْمَرِي⁽³⁾.

(10) ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾: الحبر: وهو الأثر في حُسن وبهاءٍ، فالحبار: الأثر، قال الشاعر يصف فرسًا:

وَلَمْ يَقْلَبْ أَرْضَهَا الْبَيْطَارُ** وَلَا لِحَبَلِيهِ بِهَا حَبَارُ

ثُمَّ يَتَشَعَّبُ هَذَا، فَيُقَالُ لِلَّذِي يُكْتَبُ بِهِ حِبْرٌ، وَلِلَّذِي يَكْتُبُ بِالْحِبْرِ حِبْرٌ وَحَبْرٌ، وَالْحَبْر: العالمُ، وجمعه: أَحْبَارٌ؛ لما يبقى من أثر علومهم في قلوب الناس، ومن آثار أفعالهم الحسنة المُقْتَدَى بها، قال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]⁽⁴⁾، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين علي ﷺ بقوله: (العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة).

(11) ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا﴾: الحِفظُ: يُقال تارة لهيئة النفس التي بها يثبت ما يؤدي إليه

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والزأغب، للفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هود).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/52.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (رب)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/52، والذرة، تفسير القرآن الكريم: 3/116.

(4) الزأغب، للفردات: (حبر).

الفهم، وتارة لضبط الشيء في النفس، ويضادّه: النسيان، وتارة لاستعمال تلك القوة، فيقال: حفظت كذا حفظاً، ثم يُستعمل في كل تَقَدُّ وتعهّد ورعاية وحراسة، يُقال: حفظ البيت، أي: حرسه، ويأتي الحفظ بمعنى: الرعاية والعناية، وضدّه التضييع والتفريط، تقول: حفظ المال حفظاً: إذا رعاه ومنعه من الضياع، والحفظ أيضاً: التعاهد وقلة الغفلة، وضدّه النسيان، يُقال: حفظ الكلام، أي: تعاوده ولم ينسه، ومن معاني الحفظ: الصيانة والإبقاء والاستمرار والمواظبة والمراقبة والاحتراز⁽¹⁾.

(12) ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾: الكَتَبُ: ضمّ أديم إلى أديم بالخيطة، وفي التعارف، ضمّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطّ، وقد يُقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ؛ فالأصل في الكتابة النظم بالخطّ.

وقال ابن فارس: الكاف والتاء والباء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على جمع شيءٍ إلى شيءٍ، ومنه قيل: كَتَبْتُ الكتابَ؛ لأنّه يجمع حرفاً إلى حرفٍ، والكتابُ: اسمٌ لما كُتِبَ مجموعاً، وكَتَبَ الشيءَ، أي: خطّه، ومن معاني الكتاب: الصّحيفة، والدّواة، والقدر، والفرص، كما يُطلق على ما يكتبه الشخص ويرسله⁽²⁾.

(13) ﴿شَهَادَةٌ﴾: الشهادة: الحضور والمعينة، يُقال: شَهِدَ الشيءَ: إذا حضره وعينه، وتُطلق بمعنى الإخبار والإعلام، يُقال: شَهِدَ بالأمر: إذا أَخْبَرَ به وأَعْلَمَ غيره به، فالشهادة: إخبارٌ عن علمٍ يحصلُ عن طريق الحضور أو الرّؤية ونحو ذلك، ومن معانيها: العلم، والرّؤية، والإدراك⁽³⁾.

(14) ﴿فَلَا تَخْشَوْا﴾: الخشية: الخوف والدُّعْر، يُقال: خَشِيَهِ يخشاه خشياً وخشياً، أي: خافه ودُّعْر منه، أو أَنَّ الخشية: خوفٌ مع تعظيم، وأكثرُ ما يكون ذلك عن علمٍ بما يخاف منه، وأصلها من الخشي، وهو اليباس من النبات، يُقال: شَجَرَةٌ خَاشِيَةٌ، أي: يابسة، ويُقال: هذا المكانُ أَخْشَى من ذلك، أي: أشدُّ، وتأتي الخشية بمعنى تألم القلب بسبب توقُّع مكروه في المستقبل، ومن معانيها أيضاً: الرّجاء، والعلم، والتعظيم، والكرهية⁽⁴⁾.

(1) الخليل، العين، والأزهرى، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزآبادي، مقاييس اللغة، وابن سيده، للحكم، والجوهري، الصحاح: (كتب).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية، والزبيدي، تاج العروس: (شهد).

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (خشي).

(15) ﴿التَّاسِ﴾: هم بنو آدم، والأصل في النَّاسِ الْإِنْسَانُ مُحَقَّفًا، فجعلوا الألف واللام عوضًا من الهمزة⁽¹⁾.

(16) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ الشُّرَاءُ: المبادلة، يُقال: شَرَى الشَّيْءَ: يَشْرِيهِ شَرَى وشراءً، إذا بادلته بغيره، أو تركه مقابل شيءٍ آخر، والعرب تقول لكلِّ مَنْ ترك شيئاً وتمسَّكَ بغيره: قد اشْتَرَاهُ، ويُطلق الشُّرَاءُ على البيع، وهو: مال بمال، ومن معانيه أيضاً: المماثلة⁽²⁾، وتُجَوِّزُ بالشُّرَاءِ والاشْتِراءِ في كلِّ ما يحصل به شيء، نحو: ﴿أَشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: 86].

(17) ﴿بِآيَاتِي﴾: الآية: مشتقة إمَّا من (أَيٍّ)؛ فَإِنَّهَا هي التي تبين أيًّا من أيٍّ، أو من قولهم: أوي إليه، والصَّحيح أنها مشتقة من التَّأْيِي، الذي هو التَّثْبِت، والإقامة على الشيء، وتُطلق على البناء العالي، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: 128]، أي: علامة، ومنه سُمِّيَت الآية من القرآن بذلك؛ لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها والذي بعدها، وتُطلق بمعنى جماعة الحروف، ومنه: آية القرآن، ويُقال: خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، ومن معانيها: المعجزة، والدليل، والبرهان، والأمر العجيب، والعبرة، والجمع: آيات، وآي⁽³⁾.

(18) ﴿ثَمَنًا﴾: الثَّمَنُ: اسمٌ لِمَا يَأْخُذُهُ الْبَائِعُ فِي مَقَابِلَةِ الْبَيْعِ، عَيْنًا كَانَ أَمْ سِلْعَةً. وكلِّ ما يحصل عوضًا عن شيءٍ فهو ثَمَنُهُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77]، وَأَثْمَنْتُ الرَّجُلَ بَمَتَاعِهِ، وَأَثْمَنْتُ لَهُ: أَكْثَرْتُ لَهُ الثَّمَنَ، وشيءٌ ثَمِينٌ: كثيرُ الثَّمَنِ⁽⁴⁾.

(19) ﴿قَلِيلًا﴾: يُقال: قَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قَلَّةً فهو قَلِيلٌ، القِلَّةُ والكثرةُ يستعملان في الأعداد، كما أَنَّ الْعِظَمَ وَالصَّغَرَ يستعملان في الأجسام، ثُمَّ يَسْتَعَارُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْعِظَمِ وَمِنَ الْقِلَّةِ وَالصَّغَرِ لِلْآخَرِ.

وَيُكْنَى بِالْقِلَّةِ عَنِ الدَّلَّةِ قَوْلُهُ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ [الأعراف: 86]، وَيُكْنَى بِهَا

(1) الخليل، العين، والأزهرقي، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (أنس).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شري).

(3) الجوهري، الصحاح، والزَّاغِب، للفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أيا).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّاغِب، للفردات: (ثمن).

تارةً عن العزة اعتبارًا بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13)، وقليلٌ يُعَبَّرُ به عَنِ النَّفْيِ، نحو: قَلَّمَا يفعل فلانٌ كذا، ولهذا يصحُّ أَنْ يُسْتَنْثَى مِنْهُ عَلَى حَدِّ مَا يُسْتَنْثَى مِنْ النَّفْيِ، فيقال: قَلَّمَا يفعل كذا إِلَّا قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا، وما يجري مجراه (1).

(20) ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: الْكُفْرُ: نَقِيضُ الْإِيمَانِ، يُقَالُ: كَفَرَ بِالشَّيْءِ، يَكْفُرُ، كُفْرًا وَكُفُورًا وَكُفْرَانًا: إِذَا أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، وَيَأْتِي الْكُفْرُ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ وَالْجُحُودِ، فيقال: كَفَرَ بِالنِّعْمَةِ، أَي: أَنْكَرَهَا وَجَحَدَهَا، وَأَصْلُ الْكُفْرِ: السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ، يُقَالُ: كَفَرَ الشَّيْءُ، أَي: سَتَرَهُ وَغَطَّاهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الزَّارِعُ كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ يُعْطِي الْبَذَرَ بِالتُّرَابِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ غَطَّى الْحَقَّ وَالْإِيمَانَ، وَمِنْ مَعَانِي الْكُفْرِ أَيْضًا: الْبَرَاءَةُ، وَالْامْتِنَاعُ، وَالْكَذِبُ (2).

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ﷺ، فِيهَا إِرْشَادٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى الْخَيْرِ، وَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ، يَحْكُمُ بِهَا أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ انْقَادُوا لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ، وَيَحْكُمُ بِهَا الْعُلَمَاءُ وَالْفُقَهَاءُ الَّذِينَ يُرَبُّونَ النَّاسَ بِمَا اسْتَحْفَظَهُمُ اللَّهُ عَلَى كِتَابِهِ، وَجَعَلَهُمْ أَمْنَاءَ عَلَيْهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، وَهُمْ شُهَدَاءُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ حَقٌّ، وَإِلَيْهِمْ يَرْجِعُ النَّاسُ فِي أَمْرِهِ، فَلَا تَخَافُوا - أَيُّهَا الْيَهُودُ - النَّاسَ وَخَافُونِي وَحْدِي، وَلَا تَأْخُذُوا بَدَلًا مِنَ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ثَمَنًا قَلِيلًا مِنْ رِئَاسَةِ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْوَحْيِ مُسْتَحِلًّا ذَلِكَ، أَوْ مُفَضَّلًا عَلَيْهِ غَيْرِهِ، أَوْ مُسَاوِيًّا لَهُ مَعَهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (3).

❁ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالتَّبْلَاغِيُّ:

سَرَّ عَدَمَ عَطْفِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا قَبْلُهَا ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾:

لَمْ تَعْطَفْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى مَا قَبْلُهَا؛ لِأَنَّهَا كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، سِيَقُ لَتَقْرِيرٍ مَزِيدٍ فِظَاعَةٍ حَالِ أُولَئِكَ الْيَهُودِ بَيَانِ شَرَفِ عُلُوِّ التَّوْرَةِ عَلَى أَيِّ وَجْهِ.

بيان فظاعة حال
اليهود

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّاعِبُ، المفردات: (قل).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).

(3) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 115.

دلالة التوكيد بـ (إِنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾:

جاءت الجملة مؤكدة بـ (إِنَّ) واسمى الجملة؛ وذلك لأنَّ المخاطبين - وهم اليهود - مُتردِّدون في أمر الزَّنا، فافتضى الحال التوكيد لينزع الشكَّ من نفوسهم.

سرُّ التعبير بلفظ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ التَّوْرَةَ﴾:

التعبير بلفظ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ يدلُّ على شرف التَّوراة، ومكانها من الحقِّ ﷻ قبل أن يحرفوها بالزيادة والنقصان، فلمَّا حدثت الزيادة والنقصان، فنسوا حظًّا ممَّا ذكروا به، وزادوا ما لم ينزل من عند الله؛ فلا يحتجُّ بها، ولذلك بيَّن ﷻ هذا الشرف بإضافة التنزيل إليه ليدلَّ على أنَّها وحيٌّ من الله، فاستُعير النُّزول لبلوغ الوحي؛ لأنَّه بلوغ شيء من لدن عظيم،⁽¹⁾ وأكَّد ذلك الشرف بـ (إِنَّ).

وممَّا يدلُّ عليه لفظ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أنَّ الكتب السماوية مصدرها الوحي؛ فإذا صدقتم بالتَّوراة التي أنزلت على موسى، فيجب عليكم الإيمان بالقرآن؛ لأنَّه منزَّل على نبيِّنا ﷺ، فجهة الإنزال واحدة، وحدَّ الزَّاني المحصن فيهما واحد.

علة ذكر التَّوراة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ التَّوْرَةَ﴾:

جاء بذكر التَّوراة في سياق جملة مستأنفة لبيان علوِّ شأنها، ووجوب مراعاة أحكامها، وهو يتضمَّن تعظيم وتقدير شأنها⁽²⁾. ولإشارة إلى أنَّ الحادثة التي وقعت هي في اليهود خاصَّة؛ لأنَّ التَّوراة كتاب موسى ﷺ، ولأنَّ شأنها شأن الكتب السماوية، تعمل على حفظ الأعراض، ومنع انتشار الرذيلة في المجتمع.

شرف التَّوراة
قبل تحريفها:

التَّوراة رسالة
الله تعالى لبني
إسرائيل:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/207.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/40.

دلالة التعبير بـ(نون العظمة) في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾:

مكانة التَّوراة
عند الله تعالى:

دلّت (نون العظمة) على شرف التَّوراة وقداستها، وذلك لأنّها مُنَزَّلَةٌ من عند الله، فاكْتَسَبَتِ التَّعْظِيمَ.

دلالة وصف التَّوراة بالهدى والنُّور:

وصفُ التَّوراةِ بالهدى والنُّورِ دلالة على شرفها الذَّاتِي؛ حيث اشتملت على الهداية في بيان الأحكام؛ في المعاملات والزَّواجر الاجتماعيّة في الانحرافات الأخلاقيّة، وأمّا النُّور فهو ما تشتمل عليه من مواعظ مبصرة وأخلاق منيرة للحقّ، مقوِّمة للسلوك، ونحو ذلك، وبذلك تكون الهداية لما يتعلّق بمعاملات النَّاس وتنظيم حياتهم، والنُّور ما يتعلّق بالعقيدة والعبادة والمواعظ⁽¹⁾.

نكتة الجمع بين الهدى والنُّور:

وجمع بين وصفَي الهدى والنُّور؛ للردّ على اليهود، ولبيان وجه العجب في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ﴾؛ فلو كانوا طُلَّابَ حَقٍّ في تحكيم رسول الله ﷺ، فالتَّوراة عندهم فيها الهداية إلى العدل والنُّور في بيان ما اسْتَبْهَمَ مِنَ الأحكام.

سرّ وصف التَّوراة بأنّها هدى ونور في قوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وسرّ وصف القرآن بأنّه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾:

الهدى والنُّور من
خصائص الكتب
السَّماويّة:

ذَكَرَ اللهُ تعالى أنّ في التَّوراة هُدًى ونوراً، فقال تعالى: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، ووصفَ سُبْحانَهُ القرآن الكريم بأنّه هُدًى، فقال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185]، فالقرآن كلّهُ هُدًى، وكلُّهُ نورٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: 174].

فالفرق بين التَّعبيرين ظاهر؛ ففي هذه الآية جاء التَّعبير عن

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/2199.

التَّوراة بقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، أما التعبير في حق القرآن الكريم فهو هدى ونور؛ ففرق عظيم بين التعبيرين؛ لأنَّ التَّوراة جعل الله تعالى فيها هدى ونورا، والقرآن الكريم جعله الله تعالى هدى ونورا⁽¹⁾.

ومما يؤكد ذلك أنَّ الله تعالى وصفها بالضياء في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: 48]، والضياء: هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإشراق، كضياء الشمس، بخلاف القمر؛ فإنه نور محض، فيه إشراقٌ بغير إحراق، وذلك لأنَّ الغالب على شريعتهم الضياء؛ لما فيها من الآصار والأغلال، ووصف شريعة محمد ﷺ بأنها نور لما فيها من الحنيفية السمحة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15]⁽²⁾.

وعلى هذا يكون الفرق واضحا؛ فالتَّوراة فيها هدى ونور، والقرآن كله هدى ونور.

سرّ تقديم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾:

قدّم الجارّ والمجرور في قوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾؛ للردّ على اليهود في تغيير الأحكام، فالله يقول لهم: عندكم التَّوراة ناطقة بحكم الله، وفيها ما يُغنيكم عن التحكيم، حيث اشتملت على الهداية في بيان الأحكام والشرائع والتكاليف التي منها حدّ الرّجم، وفيها النور الذي يشير إلى أنّ حكم رسول الله ﷺ الذي أمر به حق لا شبهة فيه.

علّة التعبير بالمصدر (هُدًى) دون اسم الفاعل (هاديًا) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾:

وصف الله ﷻ التَّوراة بالمصدر؛ لتعظيم شأنها وتفخيمه، ففيها الهداية والنور، والتبشير بمحمد ﷺ، والتعبير بالمصدر (هُدًى) أبلغ من الوصف باسم الفاعل (هاديًا)؛ إذ أراد الله تعالى أن يُبين شرف التَّوراة قبل أن تمتد إليها يد التحريف والتبديل، ويدلّ على شرفها أنّ الله تعالى هو الذي أنزلها على موسى ﷺ.

والغرض من وصف التَّوراة بالمصدر (هُدًى) بيان الحكم الذي جاء اليهود يستفتون

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة المائدة: 1/428.

(2) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/24.

فيه النَّبِيُّ ﷺ، وهو وجوب رجم الزَّاني، وقد سبق بيان هذا الحكم في التَّوراة؛ لأنها مُبَيَّنَّة صَحَّة نُبُوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ، فهذا تنبيهٌ مِنَ اللَّهِ تعالى لليهود المنكرين لوجوب الرَّجم، وترغيبٌ لهم أَنْ يكونوا كُمُتَقَدِّمِيهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَمُسْلِمِي أَحْبَارِهِمْ.

دلالة عطف التَّور على الهدى:

أحكام التَّوراة
هادية وواضحة:

عطف التَّور على الهدى؛ لأنَّ التَّعبير به في الآية استعارةٌ للبيان والحقِّ، ولذلك عُطِفَ على الهدى، فأحكامها هاديةٌ وواضحةٌ، والظَّرفِيَّة حَقِيقِيَّةٌ، والهدى والنُّور دالَّاهُما، ولك أن تجعل النُّور هنا مُسْتَعَارًا للإيمان والحكمة، كقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]، فيكون بينه وبين الهدى عموم وخصوص مُطْلَق، فالنُّور أعمُّ، والعطف لأجل تلك المغايرة بالعموم⁽¹⁾.

سَرِّ تَقْدِيمِ الْهُدَى عَلَى التَّور:

قُدِّمَ الْهُدَى عَلَى التَّور؛ لِمُنَاسَبَةِ السِّيَاق الَّذِي نَزَلَتْ بِشَأْنِهِ الْآيَاتُ، وهو حادثة الزَّنا، الَّتِي حَاوَلَ الْيَهُودُ التَّضْلِيلَ فِيهَا، وَتَحْوِيلَ الْحُكْمِ مِنَ الرَّجْمِ إِلَى تَسْخِيمِ الْوَجْهِ وَالْجِلْدِ، وَالْهُدَى فِي مَعْنَاهُ مَحْمُولٌ عَلَى بَيَانِ الْأَحْكَامِ؛ لِأَنَّ التَّور جَاءَهُمْ عَنْ طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيَانِ الْأَمْرِ الْحَقِّ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوراةَ سَابِقَةً عَلَى شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ؛ لِذَلِكَ نَاسِبٌ تَقْدِيمُ الْهُدَى عَلَى التَّور؛ مِرَاعَاةً لِلزَّمَنِ.

بلاغه الاحتباك في قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾:

في الآية من البلاغة ما يُعرف بالاحتباك؛ حيث ترك أولاً ذكر ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾؛ لدلالة ما ذُكِرَ بعدُ عليه، وترك ذكر الإسلام بعدُ؛ لدلالة ذِكْرِهِ أَوَّلًا، والتَّقدير: (يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بِمَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/208.

استحفظوا للذين هادوا، والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بما
استحفظوا)، وإنَّما خَصَّ الأوَّلَ بذكر الإسلام؛ لأنَّ الأنبياءَ أَحَقُّ به،
وهو داعٍ إلى الحفظ قطعاً، وخَصَّ الثاني بالاستحفاظ؛ لأنَّ الأتباع
أولى به، وهو دالٌّ على الإسلام⁽¹⁾.

دلالة قوله: ﴿أَسْلَمُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾:
المراد بهذا الوصف الاستسلامُ الظَّاهِرُ والباطنُ، والمعنى:
أخلصوا لله تعالى ولتنفيذ أحكامه.

سرُّ وصف الأنبياء بالإسلام في قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾:
وصف الأنبياء ﷺ بهذا الوصف؛ للدلالة على إخلاصهم لله،
وإذعانهم للحقِّ، ولا يحاولون أن يجدوا منه مناصاً بتأويل، أو بإرادة
تخفيف لشريف، وتشديد على ضعيف، وفي ذلك تعريض بما فعله
اليهود في تطبيق أحكام التَّوراة؛ فيجعلونها على الضَّعفاء حكماً
صارماً، ولا يطبِّقونها على أشرف القوم بل يتهاونون في تطبيقها.

سرُّ الإتيان بوصف الإسلام للأنبياء مع أنَّ ذلك واضح لا يحتاج إلى ذكر:
أُتِيَ بوصف الإسلام للنَّبِيِّينَ مع أنَّ ذلك معلوم، ولا يحتاج إلى
التَّنصيص عليه؛ لأنَّ المراد بقوله ﴿أَسْلَمُوا﴾: انقادوا لحكم التَّوراة؛
فإنَّ مَنْ الأنبياء من لم تكن شريعته شريعة التَّوراة، وهو عيسى ﷺ.

المراد بالنَّبِيِّينَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا:

ذهب بعض أهل العلم إلى أنَّهم أنبياء بني إسرائيل من بعد
موسى ﷺ إلى مبعث عيسى ﷺ، وذهب آخرون إلى أنَّ المراد
بالنَّبِيِّينَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا هو سيدنا محمَّد ﷺ؛ وذلك لأنَّه حكم على
اليهوديَّين بالرجم، وكان هذا حكم التَّوراة، وعبر عنه بلفظ الجمع
تعظيماً له ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120]، وقوله

إِعْظَام صِفَةِ
الإِسْلَامِ بِعِظَمِ
مَوْصُوفِهَا؛ وَهَمَّ
الْأَنْبِيَاءُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/145.

تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: 54]، فالمراد النَّبِيِّ ﷺ؛ لأنه جمع كلِّ خصال الخير الموجودة في الأنبياء⁽¹⁾، حيث قال الله تعالى في سورة الأنعام بعد ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا﴾ حُجَّتُنَا﴾ [الأنعام: 83] وما بعدها، حيث جمع فيها عددًا كثيرًا من الأنبياء، ثم قال بعدها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْدِمَةً﴾ [الأنعام: 90].

وصف (النَّبِيِّينَ) بالإسلام دون غيره:

وصف (النَّبِيِّينَ) بالإسلام؛ لبيان ما أوتوا من شرف الإذعان، وللإشارة إلى أن تنفيذ الأحكام من غير عوج ولا التواء هو خلق النَّبِيِّينَ.

وفيه الإشارة إلى شرف الإسلام وفضله؛ إذ كان دينَ الأنبياء، ويُضاف إلى ذلك أنه وصفهم بذلك على سبيل المدح والثناء، لا على سبيل التفصيل والتوضيح؛ فإنَّ الأنبياءَ كلَّهم مسلمون، وفيه إشارة إلى إعظام صفة الإسلام بعظم موصوفها وهم الأنبياء، فأوصاف الأشراف أشرف الأوصاف، وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريض باليهود بأنَّهم بمعزلٍ من الإسلام والافتداء بدين الأنبياء ﷺ، وفيه ردُّ على اليهود والنصارى؛ لأنَّ بعضهم كانوا يقولون: الأنبياء كلَّهم يهود أو نصارى، فقال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾، يعني: أنَّ الأنبياء ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين لله تعالى متفادين لتكاليفه⁽²⁾.

معنى اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾:

اللَّام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾، وليست لتعدية فعلٍ ﴿يَحْكُمُ﴾؛ إذِ الحكم في الحقيقة لهم وعليه، كأنَّه قيل: لأجل الذين هادوا، وإمَّا للإيدان بنفعه للمحكوم عليه أيضًا بإسقاط التَّبعة عنه، وإمَّا للإشعار بكمال رضاهم له، كأنَّه أمر نافع لكلا الفريقين، ففيه تعريض بالمُحرِّفين.

تعدد الأقوال في تعلق اللَّام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾:

في تعلق اللَّام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ ثلاثة أقوال:

(1) الزَّازَنِي، مفاتيح الغيب: 6/222.

(2) ابن عادل، اللُّباب: 7/346.

الأول: أَنَّهَا متعلّقة بـ ﴿يُحْكَمْ﴾، ويكون معناها على هذا: الاختصاص، وتشمل مَنْ يُحكم له ومَنْ يُحكم عليه، ولهذا قدّر بعض أهل العلم كلامًا محذوفًا، تقديره: يحكم بها النّبِيُّونَ للذين هادوا وعليهم.

الثاني: أَنَّهَا متعلّقة بـ ﴿أَنْزَلْنَا﴾: أي أنزلنا التّوراة للذين هادوا يحكم بها النّبِيُّونَ. الثالث: أَنَّهَا متعلّقة بهدى ونور، والمعنى: هدى ونور للذين هادوا.

دلالة عطف قوله تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾:

قوله: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ معطوف على قوله: ﴿النَّبِيُّونَ﴾؛ وذلك لبيان أنّ التّوراة ما كان يُطبّق أحكامها النّبِيُّونَ فقط، لئلا يُقال: لسنا كالنّبِيِّينَ، أو أنّ تطبيقتها مقصورٌ عليهم، ولكنّ النّصّ بين أنّ الرّبّانيّين والأحبار يطبّقون أحكامها؛ وذلك لأنّهم اتّصفوا بالإخلاص، والاتّصال الرّوحيّ بالله، والعلم الدّقيق العميق⁽¹⁾، ولأنّهم ورثة علمهم، وعليهم تلقّوا الدّين.

دلالة قوله تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾:

الرّبّانيّون: جمع، مفردة (الرّبّانيّ) منسوبٌ إلى الرّبّان، وهو على وزن فعلان، أو هو منسوبٌ إلى الرّبّ الذي هو المصدر، وهو الذي يربُّ العلم، كالحكيم، أو هو منسوبٌ إليه ومعناه: يربُّ نفسه بالعلم، وهما متلازمان؛ لأنّ مَنْ ربّ نفسه بالعلم فقد ربّ العلم، ومَنْ ربّ العلم فقد ربّ نفسه.

ويجوزُ أن يكون منسوبًا إلى الرّبّ، أي: الله تعالى، فالرّبّانيّ كقولهم: إلهيّ، وزيادة النّون كزيادته في قولهم: لحيانيّ وجّمانيّ⁽²⁾.

والخلاصة، أنّ كلمة (رّبّانيّ) إمّا أن تكون منسوبة إلى الرّبّ بمعنى تربية النّفس وتهذيبها، وجعلها خاضعة لله تعالى، وإمّا منسوبة إلى الرّبّ الخالق، أي: أنّ الشّخص قد جعل نفسه خالصًا لله تعالى، والمعنّيان وإن اختلفا في التّصريف والاشتقاق؛ فهما متلاقيان في المؤدّى؛ لأنّ المقصود أنّ الرّبّانيّين هم الذين صفوا نفوسهم حتّى كانت لله تعالى خالصة⁽³⁾.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2201.

(2) الرّاغب، المفردات: (رب).

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2201.

والأخبار: جمع خبر أو خبر، والمراد بهم العلماء، وهو في الأصل: بمعنى التزيين والتحسين؛ لأنه مأخوذ من التعبير والتجبر، فهم يحبرون العلم ويزيّنونه، وسُمّي الخبر خبراً؛ نسبة إلى المداد الذي يكتب به؛ لأنه يُحبر به، أي: يحقق به⁽¹⁾.

سرّ الجمع بين الرّبّانيّين والأخبار:

جُمع بين وصفيّ الرّبّانيّين والأخبار؛ لاشتراكهما في تطبيق حكم التّوّارة، فالرّبّانيّون صفت نفوسهم، وربّوها بالعلم والعبادة، والعلماء جمعوا العلم وربّوه وعرضوه، وبهذا يمكن القول: بأنّ اللّذين قاموا على التّوّارة صنفان: أحدهما: جَمَعَ عِلْمَهَا، واستخرج ينابيعها، وأحاط بها، والآخر: مَنْ طَبَّقَهَا فِي الْأَقْصِيَّةِ⁽²⁾.

دلالة تقديم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ على ﴿وَالْأَخْبَارُ﴾:

قُدِّمَ ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ على ﴿وَالْأَخْبَارُ﴾؛ لأنّ الرّبّانيّين هم اللّذين يطبّقون العِلْمَ على العمل، والمقام في الآية مقام تطبيق.

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾:

الباء في قوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾؛ للملابسة، أي: حكماً ملابساً للحقّ مُتَّصِلاً به غير مُبدل، ولا مُغيّر، ولا مُؤَوَّل تأويلاً لأجل الهوى، ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه من التّغيير والكتمان.

أثر تعلق الباء في قوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾:

الباء تتعلّق بالفعل ﴿يَحْكُمُ﴾، والمراد أنّ النّبیین والرّبّانيّين والأخبار يحكمون بما في التّوّارة؛ لأنّهم حُمِّلُوا أمانة حفظ كتاب الله تعالى، ويجوز أن تتعلّق بالرّبّانيّين والأخبار، والضّمير عائد عليهم وحدهم، والمعنى: أنّهم أوتوا هاتين المنزلتين (الرّبّانيّة والعلم)؛ بسبب أنّهم حملوا أمانة الكتاب.

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/347.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2202.

العلماء هم
حَفَظَةُ الْعِلْمِ
ووعاؤه:

دلالة التعبير بلفظ الاستحفاظ في قوله تعالى: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾:

الاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أمانة فهمه حقّ الفهم بما دلّت عليه آياته، فاستُعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة على ما هو عليه، فالسّين والتّاء دالة على الطّلب، أي: طُلب منهم أن يحفظوا التّوراة من التّحريف والتّغيير والتّبديل، أو طُلب منهم أن يحفظوا التّوراة في صدورهم، وأن لا يضيّعوا أحكامها وينسوّها.

دلالة صيغة الاستفعال في قوله: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا﴾:

السّين والتّاء تدلّ على الطّلب، والمعنى أنّ الرّبّانيّين والأخبار حَفِظُوا كتاب الله (التّوراة) بإلهامهم طَلَبَ الحقّ والعلم، وتوجيههم نحو الخير، وكان حفظهم مؤكّداً؛ لأنّه استجابة لطلبه تعالى بحفظ التّوراة من التّغيير والتّحريف، يُضاف إلى ذلك جواز وقوع التّبديل على أهل التّوراة، ولم يَجْزْ على أهل القرآن، حيث وَكَلَ الحفظ إليهم، أمّا في القرآن المجيد فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩)، فتعهّد الله بحفظه، فلم يَجْزِ التّبديل على أهل القرآن^(١).

المراد بـ ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾:

المراد بكتاب الله هنا التّوراة؛ فهي أصل العلوم في شريعة بني إسرائيل.

سرّ التعبير عنها بـ ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾:

عُبر عن التّوراة بكتاب الله للإشارة إلى منزلتها، وعلوّ قدرها قبل تحريفها، وللتّنبية على من يقومون بشرف حفظها، وإلى مكان التّكليفات والأحكام التي اشتملت عليها^(٢).

دلالة الإبهام والبيان في قوله تعالى: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾:

في إبهام ذكر التّوراة أوّلاً في قوله: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا﴾، ثمّ بيانها ثانياً بقوله تعالى: ﴿مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ تفخيم وإجلال لها ذاتاً وإضافةً، وتأكيد لإيجاب حفظها والعمل بما فيها، وإيرادها بعنوان (الكتاب) إيماءً إلى إيجاب حفظها عن التّغيير من جهة الكتابة.

و(مِنْ) مُبَيِّنَةٌ لإبهام (مَا) في قوله: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا﴾.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/209، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 4/165.

(٢) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2202.

و﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ هو التَّوْرَة، فهو مِنَ الإظهار في مقام الإضمار؛ ليتأتى التعريف بالإضافة المفيدة لتشريف التَّوْرَة وتمجيدها بإضافتها إلى اسم الله تعالى (1).

دلالة بناء الفعل ﴿أَسْتَحْفِظُوا﴾ للمفعول:

دلّ بناء الفعل للمفعول ﴿أَسْتَحْفِظُوا﴾ على أنّه بمقتضى ما مُنحوا من صفاتٍ عهد إليهم أمر المحافظة على كتاب الله تعالى (التَّوْرَة).

بلاغة الالتفات في قوله تعالى: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ و﴿أَخْشَوْنَ﴾:

تظهر بلاغة الالتفات في الآية الكريمة في عدول السياق عن الغيبة: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ إلى المتكلم ﴿وَأَخْشَوْنَ﴾، وفي الغيبة أراد أن يُثبِت أن ما في التَّوْرَة من عند الله تعالى، لذلك لم يأتِ (بما استَحْفِظُوا مِنْهَا)، ثم استعمل صيغة التَّكَلُّم تأكيداً لذلك، وتحقيقاً لفائدة الاستمرار الدلالي الخارج عن السياق الداخلي للآية، والذي يُمكن أن يُعدّ تمهيداً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، فيستشعر ذلك كل المخاطبين دون قيدٍ زمني.

تعيين مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَكَاْنُوا﴾:

الضمير في قوله: ﴿وَكَاْنُوا﴾ يعود على النّبِيِّينَ والرّبَّانِيِّينَ والأخبار، أي: وكانَ المذكورون شهداءً على كتاب الله تعالى، أي: شهداء على حفظه من التَّبدِيل.

سرّ التعبير بحرف الجرّ (على) في قوله تعالى: ﴿وَكَاْنُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾:

عُبر بحرف (على) هنا للدلالة على معنى التَّمَكُّن، وليس هو (على) الذي يتعدّى به فعل (شَهِدَ) إلى المحقّق، كما يتعدّى ذلك الفعل باللام إلى المشهود له، أي: المُحَقِّق، بل هو هنا مثل الذي يتعدّى به فِعْلُ (حَفِظَ وَرَقَبَ) ونحوهما، أي: وكانوا حَفَظَةً على كتاب الله وحِرَاسًا له من سوء الفهم، وسوء التَّأْوِيل، ويحملون أتباعه على حقّ فهمه وحقّ العمل به؛ ولذلك عَقِبَهُ بجملة: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشَوْنَ﴾ المتفرّعة بالفاء على قوله: ﴿وَكَاْنُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾، إذ الحفيظ على الشّيء الأمين حقّ الأمانة لا يخشى أحدًا في القيام بوجه أمانته، ولكنّه يخشى الذي استأمنه (2).

(1) ابن عاشور، التَّحْرِير والتَّنْوِير: 6/209.

(2) ابن عاشور، التَّحْرِير والتَّنْوِير: 6/210.

المراد بالشهداء في قوله: ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾:

المراد بهم: النّبِيُّونَ والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ، فَكَانُوا شُهَدَاءَ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا فِي التَّوْرَةِ حَقٌّ وَصَدَقَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

إثارة التعبير بالشهداء دون الشهود:

آثر القرآن الكريم التعبير بالشهداء في هذا المقام على (شهود)، وكلاهما جمع كثرة، وذلك لأنها جاءت في مَوْضِعِ تعظيم الشهادة، وهذا التعظيم يتطلب مزيداً من الدقة والأمانة لما يترتب عليها من الآثار. ومن أسباب إثارتها تعظيم الشهداء؛ وذلك لما فيها من زيادة في مبناها، فبدل على الزيادة في قدر الشهادة، وشرف حاملها⁽¹⁾. وهذا المعنى ظاهر في هذه الآية؛ لأنّ الشهداء هم النّبِيُّونَ والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ، والشهادة على التّوراة المنزلة من عند الله، فاجتمع شرف الشهادة وشرف الشهود.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا﴾ يُرَادُ بها الإفصاح عن كلام مُقَدَّرٍ، والمعنى: إذا كان الكتاب قائماً وثابتاً، ونفذه السلف والخلف إلى ما بعد عصر النّبِيِّينَ؛ فلا تخشوا الناس⁽²⁾.

الخطاب القرآني
متكامل في
جميع نواحيه:

دلالة الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

الخطاب في الآية الكريمة لليهود المعاصرين زمن نزول الآية، والفاء للتفريع عما حُكي عن سلف الأنبياء والمؤمنين؛ ليكونوا قُدوة لخلفهم من الفريقين، والجملة على هذا الوجه مُعْتَرِضة، ويجوز أن يكون الخطاب للنّبِيِّينَ والرَّبَّانِيِّينَ والأَحْبَارِ فهي على

(1) الخضرّي، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ص: 192.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2003.

تقدير القول، أي: قلنا لهم: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ﴾، والتفريع ناشئ عن مضمون قوله: ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾: لأن تمام الاستحفاظ يظهر في عدم المبالاة بالناس رضوا أم سخطوا، وفي قصر الاعتداد على رضا الله تعالى.

دلالة الترتيب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْا وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا﴾:

لما كان إقدام القوم على التحريف يكون لخوف عظيم أو رهبة أو طمع، ولما كان الخوف أقوى تأثيراً من الطمع؛ قدّم تعالى ذكره، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْا﴾، وآخر النهي عن الاشتراء؛ لأنه أمرٌ يقوم على الرغبة، فقدّم أمر الرهبة على الرغبة⁽¹⁾.

بلغة طباق السلب⁽²⁾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْا﴾:

في الجملة: طباق سلب؛ فقد جمع بين فعل واحد، فالطرف الأول: نهى ﴿فَلَا تَخْشَوْا﴾، والطرف الآخر: أمر ﴿وَأَخْشَوْا﴾، وليس الطباق بين عدم خشية الناس، وخشية الله، فإن الذي بينهما تلازم لا تقابل، بل الطباق بين مطلق خشية الناس المنهي عنها، وخشية الله تعالى المأمور بها⁽³⁾.

دفع ما ظاهره التعارض بين الأمر والنهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْا﴾:

قد يظهر لأول وهلة وجود تعارض في أسلوب الآية، حيث اشتملت على النهي والأمر، ولكن بالتأمل والتدبر يتضح أنه لا تعارض فيها، ذلك أنه من المعلوم أن الخشية لا يؤمر بها ويُنهى عنها من جهة

لا تنافي ولا
تعارض بين
آيات القرآن
الكريم:

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/349.

(2) طباق السلب في الأفعال: هو الجمع بين فعلي مصدر واحد، مثبت ومنفي أو أمر ونهي، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]. الصعدي، بغية الإيضاح: 4/575.

(3) السبكي، عروس الأفراح: 2/229، والدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر اللعاني، ص: 14.

واحدة، بل من جهتين كما في الآية، فقد أمر بها باعتبار كونها لله، ونهى باعتبار كونها للناس، فالتنافي بين الأمر والنهي إنما هو باعتبار أصلهما لا باعتبار مادة استعمالهما⁽¹⁾.

دلالة النهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُونَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

النهي الذي اشتملت عليه هاتان الجملتان الكريمتان: ﴿فَلَا تَخْشَوْا﴾، و﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾، وإن كان موجَّهاً في الأصل إلى رؤساء اليهود وأخبارهم؛ إلا أنه يتناول الناس جميعاً في كل زمان ومكان؛ لأنه نهى عن رذائل يجب أن يبتعد عنها كل إنسان يتأتى له الخطاب. وإلى هذا المعنى أشار الألوسي بقوله: (هذا خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات؛ إذ انتقل من الحديث عن الأخبار السابقين منهم إلى خطاب هؤلاء المعاصرين للنبي ﷺ، ويتناول غير أولئك المخاطبين بطريق الدلالة⁽²⁾).

نكتة التعبير بالخشية دون الخوف في قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُونَ﴾:

الخشية: خوفٌ مع تعظيم المخشى ومحبة، وليست مرادفة لمعنى الخوف؛ لأن الخوف أعم من أن يكون من مرهوبٍ مُعَظَّمٍ محبوبٍ أو مرهوبٍ مُبْغَضٍ ذميم، أو فيه مهانة لا عظمة فيه، ولذلك عبّر عن الأخيار بالنسبة إلى الله تعالى بالخشية دون الخوف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، وقوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبُ﴾ [يس: 11].

سرّ التعبير عن خوف الناس وملامتهم بالخشية:

عبّر عن خوف الناس بالخشية من قبيل المشكلة اللفظية في مقابل قوله تعالى: ﴿وَآخِشُونَ﴾، أي: أن الله تعالى هو وحده الجدير

من خصائص
الخطاب
القرآني توجيه
الخاص في تربية
المجتمع:

(1) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 4/14.

(2) الألوسي، روح المعاني: 3/313.

بأن يُخشى، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (1) [الأحزاب: 39]، فقصر الخشية عليه سبحانه.

دلالة الإتيان بلفظ «النَّاس» في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾:

أتى بلفظ النَّاس في الآية مع أنَّ الخطاب موجَّه لليهود المعاصرين للنبي ﷺ وعلمائهم؛ وذلك لإفادة العموم، ويكون المعنى: لا تخافوا ملامة النَّاس جميعاً، ولكن اخشوا الله تعالى وحده؛ فلا تُمالئوا الأقوياء، وتَرَكُّنوا إليهم، بل اجعلوهم جميعاً سواء مع غيرهم من الضَّعفاء (2).

سر إثبات الياء في «وَأَخْشَوْنِي» في آية البقرة، وحذفها في موضعي المائدة «وَأَخْشَوْنِي»:

قال تعالى في موضع سورة البقرة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنِّ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 150].

وقال في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [المائدة: 3]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾.

معلوم أنَّ الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، فعندما تُثبت الياء يكون التحذير أشدَّ، ويكون الأمر أكبر، فلو نظرنا إلى سياق آية سورة البقرة نجدها قد جاءت في سياق تحويل القبلة، ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: 150]؛ وهذا الحدث نتج عنه هزة عنيفة في نفوس كثير من النَّاس، وقيام معركة بين الحقِّ والباطل؛ ولذلك جاء التحذير أشدَّ بظهور الياء؛ التي تدلُّ على زيادة التوكيد بعظم الحدث، فهو أمر كبير، لذا قال ﴿وَأَخْشَوْنِي﴾.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ موضع سورة البقرة سبقه حديث عن ظلم المشركين، وأنَّه قد بلغ الغاية القصوى في إيذاء المسلمين في شعائر دينهم، دلَّ على ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: 114]، وما فعل الكفار ذلك إلا لقوتهم؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الخشية منهم ظاهرة وواضحة؛ فجاء القرآن معلِّماً ومحدِّراً المسلمين من خشيتهم؛ لأنَّ الخشية لا تكون إلا لله ربِّ العالمين.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2203.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2203.

أما في آية المائدة فقد جاءت في سياق الأطعمة المحرّمة، وما ذُبح على النّصب، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ [المائدة: 3]، فالتّحذير فيها أقل؛ ولذلك جاء ﴿وَاخْشَوْنَ﴾ من دون ياء.

ويضاف إلى ذلك أنّ قوله تعالى: ﴿وَاخْشَوْنَ﴾ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: 3]، وفي هذه الآية دليل على أنّ قوّة المسلمين قد ظهرت، وأنّ شوكتهم قويّة، فمجال الخشية من الكفّار أصبح ضعيفاً؛ لذلك ناسب حذف الياء والاكتفاء بالكثرة دليلاً عليها.

وأما الموضع الثاني في المائدة فجاء في سياق ذكر التّوراة، والتي أنزل فيها هدى ونور يحكم بها النّبيون والرّبانيون والأحبار، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ﴾، وليس في ذلك إرجاف ولا فتنة أو إثارة، كما هو الحال في تغيير القبلة التي أدّت إلى فتنة كبيرة وإرجاف وارتداد جماعة، فناسب الحذف الحدث والمقام⁽¹⁾.

دلالة عطف قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

عُطف قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾؛ لما بينهما من شدة اتّصال، فالمعنى: كما نهيتكم عن تغيير أحكامي لأجل الخوف والرّهبة؛ فكذلك أنّهاكم عن التّغيير والتّبديل لأجل الطّمع في الجاه والمال والرّشوة⁽²⁾.

دلالة النهي في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

نهى القرآن الكريم اليهود عن هذا السلوك في آيات عديدة ممّا يؤكّد حرصهم الشّديد على أخذ العوض من المنافع الدنيويّة مع اختلاف أشكالها في بيع آيات التّوراة مقابل رشوة يأخذونها من باب حرصهم على الحياة الدّنيا وزخارفها؛ فهم يجعلون القيم والأحكام سلعة تُباع وتُشتري.

نهى القرآن
اليهود عن
السلوك المادّي
من خلال إهدار
القيم والأخلاق:

(1) السامرائي، التعبير القرآني، ص: 86 - 87.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/349.

سرّ التعبير بالفعل ﴿تَشْتَرُوا﴾ دون (يستبدلوا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

اختار الاشتراء دون الاستبدال لما بينهما من العموم والخصوص؛ فكلّ اشتراء استبدال، وليس كلّ استبدال اشتراء.

ووضع هنا الاشتراء، وهو منهي عنه، موضع الاستبدال لدلالته على حرصهم ورغبتهم الشديدة؛ لأنّ المشتري للشيء راغب فيه.

ومما يؤكّد ذلك ما ذكره أبو زهرة في معنى الآية بقوله: (لا تستبدلوا بأحكام آياتي فتركوها هاجرين لها، معرضين عنها في نظير رشوة أو مُمَالَةٍ ثَمَنًا قَلِيلًا؛ لأنّ ما يكون ثَمَنًا لترك الآيات قليل، مهما يكن مقداره، ومهما يكن اعتباره، فأيات الله أغلى من الوجود؛ لأنّها هدايته) (1).

دلالة وصف الثمن بالقليل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

جاء التعبير يصف الثمن بالقلّة، وهو ليس من الأوصاف المخصّصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصّل في مُقابل استبدال الآيات؛ لأنّه لا يكون إلّا قليلًا - وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدُّنيا - بالنسبة إلى طاعة الله، والرّجاء في رحمته ورضاه (2).

علاقة هذه الجملة بما قبلها:

**التّحذير من
تجاوز حدود
الله في الحكم:**

لما حذّره القرآن الكريم فيما سبق من خشية النّاس دون خشية الله، ونهاهم عن بيع آيات الله بثمن قليل في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أتبع ذلك بالوعيد الشّديد والعذاب الأليم لمن حرّف حكم الله على العموم، وحدّ الزّنا للمحصن على الخصوص، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

سرّ التعبير بالاسم الموصول ﴿وَمَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾:

عُبر بالاسم الموصول (مَنْ)؛ لأنّها تحتمل أن يكون المراد بها

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2204.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/167.

الفريقَ الخاصَّ المخاطَبَ بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهم الَّذِينَ أَحَقُّوا بعضَ أحكامِ التَّوْرَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا الْجَنَسُ، وَتَكُونُ الصَّلَةُ إِيمَاءً إِلَى تَعْلِيلِ كَوْنِهِمْ كَافِرِينَ، فَتَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ مَنْ لَا يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ يَكْفُرُ، وَقَدْ اقْتَضَى هَذَا قَضِيَّتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: كَوْنُ الَّذِي يَتْرَكُ الْحُكْمَ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ التَّوْرَةُ مِمَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى مُوسَى كَافِرًا، أَوْ تَارَكَ الْحُكْمَ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى الرَّسْلِ كَافِرًا، وَالْأُخْرَى: قَصْرُ وَصْفِ الْكَفْرِ عَلَى تَارِكِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ⁽¹⁾.

دلالة ختم الآية بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾:

خُتِمَتِ هَذِهِ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ لِأَنَّهَا تَذْيِيلٌ مُقَرَّرٌ لِمُضْمُونِ مَا قَبْلَهَا أَلْبَغَ تَقْرِيرٍ، وَتَحْذِيرٍ عَنِ الْإِخْلَالِ بِهِ أَشَدَّ تَحْذِيرٍ؛ حَيْثُ عُلِّقَ فِيهِ الْحُكْمُ بِالْكَفْرِ بِمَجَرَّدِ تَرْكِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى، فَكَيْفَ وَقَدْ انْضَمَّ إِلَيْهِ الْحُكْمُ بِخِلَافِهِ - وَلَا سِيَّما مَعَ مَبَاشَرَةٍ مَا نُهُوا عَنْهُ مِنْ تَحْرِيفِهِ - وَوَضْعُ غَيْرِهِ مَوْضِعَهُ، وَأَدْعَاءُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؟!

تعليق الكفر
بترك الحكم بما
أنزله الله تعالى:

دلالة الإشارة في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾:

تَرْجَعُ الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إِلَى الَّذِينَ لَا يَحْكُمُونَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ؛ فَهِيَ إِشَارَةٌ تَفِيدُ أَنَّ النَّتِيجَةَ سَبَبُهَا الْفِعْلُ، وَهُوَ تَجَنُّبُ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ بِتَرْكِهِمْ حُكْمَ الرَّجْمِ لِلزَّانِي الْمُحْصَنِ. وَقَدْ أَكَّدَ ﷺ الْحُكْمَ بِالْكَفْرِ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ، وَبِالْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَّةِ، وَبِضْمِيرِ الْفَصْلِ، وَبِالْقَصْرِ؛ إِذْ هُمْ مَقْصُورُونَ عَلَى الْكَفْرِ، وَالْكَفْرِ مَقْصُورٌ عَلَيْهِمْ قَصْرًا إِضَافِيًّا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ بَلَّغُوا فِي الْكَفْرِ أَقْصَاهُ حَتَّى لَا يَبْدَأَ كُفْرَ غَيْرِهِمْ بِجَوَارِ كُفْرِهِمْ شَيْئًا مَذْكُورًا⁽²⁾.

(1) الْقَتَوَجِيُّ، فَتْحُ الْبَيَانِ: 3/428، وَابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 6/210 - 213.

(2) أَبُو زَهْرَةَ، زَهْرَةُ التَّفَاسِيرِ: 4/2204.

دلالة ضمير الفصل ﴿هُم﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾:

ضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ له فائدتان:

إحداهما: تأكيد القصر المستفاد من تعريف جزأي الجملة، وليس ضمير القصر مفيداً القصر، بل تأكيداً.

والأخرى: التمييز بين الخبر والصفة؛ ولهذا سُمِّيَ ضمير فصل⁽¹⁾.

سرّ اختلاف التعقيب في الآيات الثلاث:

اختلف التعقيب في الآيات الثلاث؛ لأنها في شأن اليهود، ففي الموضع الأول: لما أنكروا حكم الله المنصوص عليه في التوراة في حدّ الزاني المحسن، وقالوا: إنه غير واجب، حكم الله عليهم بالكفر.

أمّا الموضع الثاني الذي ختم بالظلم، فإنّ الآية لما صُدّرت بقوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ التَّقْسِ بِالنَّفْسِ﴾، فلم تتضمن هذه الآية غير الحقوق المتعلقة بالنفوس، والوقوع في شيء من ذلك يوجب إيلاها، ودوام عقابها، وذلك ظلم لها؛ فحُتمت بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أمّا الموضع الثالث؛ فقد جاء في شأن مَنْ ترك حكم الله تعالى عمداً مع اعتقاده الإيمان وأحكامه؛ فهو فاسق.

وممّا يؤكّد ذلك ما ذكره الكرمانيّ أنّ مَنْ لم يحكم بما أنزل الله إنكاراً له فهو كافر، ومَنْ لم يحكم بالحقّ مع اعتقاده حقّاً وحكّم بضده فهو ظالم، ومَنْ لم يحكم بالحقّ جهلاً وحكّم بضده فهو فاسق، وقيل: ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر بنعم الله، ظالم في حكمه، فاسق في فعله⁽²⁾.

وعلى هذا فالآيات الثلاث ليست في أهل الإسلام، كما ذكر ذلك ابن جرير الطبريّ بقوله: الآيات الثلاث ليس في أهل الإسلام منها شيء، هي في الكفار⁽³⁾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/42.

(2) الكرمانيّ، البرهان في متشابه القرآن، ص: 103.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/346.

❖ الفروق المعجمية:

الدلالة والإرشاد والهدى:

هذه الألفاظ الثلاثة قد يُظنُّ أنها من قبيل المترادف، ولكن بالنظر في استعمالات القرآن الكريم؛ نجد بينها فروقاً ظاهرة؛ ففي اللغة الدلالة معناها: البيان والتعريف، والإرشاد: يُطلق في اللغة على بيان الطريق والتعريف بالقصد والصواب، والهدى: تُطلق على الإرشاد بلطف⁽¹⁾.

أمّا من خلال الاستعمال القرآني؛ فنجد أنّ لفظ الدلالة في أكثرها يُستعمل في الدلالة على شيء دنيويّ في الغالب إلّا موضع سورة الصف⁽²⁾، قال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ [طه: 40]، ونحو ذلك من الآيات، كما في قصة آدم ﷺ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ [طه: 120]، وورودها في هذه السياقات يؤكّد المعنى الذي ذهب إليه الراغب في تعريف الدلالة بقوله: "ما يتوصّل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعاني، ودلالة الإشارة والرموز والكتابة، والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممّن يجعله دلالة أم لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان، فيعلم أنّه حيّ"، ومن ذلك قوله تعالى في حقّ الجنّ لما مات سيدنا سليمان ﷺ، فلم يعرفوا أنّه مات إلّا من دابة الأرض، قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ [سبا: 14].

والمتمدّب لاستعمالات القرآن الكريم لما دة الإرشاد؛ يجد أنّها تضيف مع البيان والتعريف معنىً آخر، وهو إصابة الحقّ، والانتفاع به، قال الله تعالى في شأن أصحاب الكهف: ﴿وَهَبْنَاهُ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]، وبذلك يكون الإرشاد أخصّ من الدلالة. والهدى له إطلاقات متعدّدة - كما ذكر ذلك الراغب -، فمن هذه الإطلاقات: الإرشاد والبيان، قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16]، فأسند الله الهداية إلى النّجم، ويجريها الله تعالى على يد الأنبياء والعلماء وبعض المخلوقات.

وتُطلق على الإعانة والتّوفيق، وذلك حين تُسند إلى الخالق سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمّد: 17].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (دلل)، و(رشد) و(هدي).

(2) وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ نَجْدٍ تَجِبُكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ. [الصف: 11-10].

النُّور والضياء:

بالنظر في استعمالات القرآن الكريم للفظ النُّور والضياء؛ نجد بينهما فروقاً دقيقة، فمن ناحية اللغة، نجد أنَّ لفظ النُّور: هُوَ الظاهر في نفسه، المظهر لغيره⁽¹⁾، وضده: الظلام. أمَّا الضَّوء فهو ما انتشر من الأجسام النيرة، يُقال: ضاءتِ النَّارُ وأضاءت، وأضاءت غيرها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: 17]، وقال أيضاً: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأُ فِيهِ﴾ [البقرة: 20]، وقال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ [التور: 35]، وعلى هذا فالضَّوء أخص من النُّور؛ لأنه يُطلق على القليل والكثير، بخلاف الضَّوء فلا يُطلق إلا على النُّور الشديد، يؤكد ذلك استعمال القرآن الكريم حيث جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]، فخالف بينهما حيث نسب الضياء للشمس، والنُّور للقمر؛ لأنَّ النُّور في الشمس أكثر وأشدَّ توهجاً، بخلاف نور القمر، فهو خالٍ من الوهج. ومن الفروق أيضاً أنَّ النُّور على ضربين: دنيوي، وأخروي، فالدنيوي: ضربٌ معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية، كنور العقل، ونور القرآن، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [الثالثة: 15]، وقال تعالى عن التوراة: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وضربٌ محسوسٌ بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة، كالقمرين والنجوم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]⁽²⁾.

ومما يؤكد الفرق بينهما ما ذكره أبو هلال العسكري بقوله: (الضياء ما يتخلل الهواء من أجزاء النُّور، فيبيض بذلك، والشاهد أنهم يقولون: ضياءُ النهار، ولا يقولون: نورُ النهار إلا أن يعنوا الشمس، فالنُّور الجملة التي يتشعب منها)⁽³⁾.

النبي والرَّسول:

النُّبوة: اسمٌ مشتقٌّ من النَّبأ، وهو الخبر، إلا أنَّ المراد به في هذا الموضع خبر خاص، وهو الذي يلزم الله ﷻ به أحداً من عباده فيُميّزه بإلقائه إليه عن غيره، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمرٍ ونهي، ووعظٍ وإرشادٍ، ووعيدٍ ووعيدٍ، فتكون النُّبوة على هذا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نور).

(2) الرَّاغب، المفردات: (نور).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 332.

الخبر، والمعرفة بالخبرات الموصوفة التي دُكرت، والنبي هو المُخبر بها، فإن أُضيف إلى هذا التّوفيق أمرٌ بتليغه إلى النَّاس ودعائهم إليه؛ كان نبيًّا رسولًا، وإن أُلقي إليه ما ذكرنا؛ ليعمل به في خاصّته، ولم يُؤمَر بتليغه والدُّعاء إليه؛ كان نبيًّا، ولم يكن رسولًا، فكلُّ رسولٍ نبيٍّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا⁽¹⁾.

الرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ:

الرَّبَّانِيُّونَ: علماء أهل الإنجيل، والأَحْبَارُ: علماء أهل التّوراة. وذهب بعض أهل العلم إلى أَنَّ الرَّبَّانِيِّينَ هُمُ الَّذِينَ فِي الْعَمَلِ أَكْثَرُ، وَفِي الْعِلْمِ أَقَلُّ، والأَحْبَارُ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا أَكْثَرَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ⁽²⁾، وهذا هو الرَّاجِحُ؛ لأنَّ الْحَدِيثَ عَنِ التّوراة، وليس عَنِ الْإِنْجِيلِ.

الحِفْظُ والحِرَاسَةُ والرَّعَايَةُ والحِمَايَةُ:

الحِرَاسَةُ حِفْظٌ مُسْتَمَرٌّ، وَلِهَذَا سُمِّيَ الْحَارِسُ حَارِسًا؛ لِأَنَّهُ يَحْرُسُ فِي اللَّيْلِ كُلِّهِ، أَوْ لَأَنَّ ذَلِكَ صِنَاعَتُهُ فَهُوَ يُدِيمُ فِعْلَهُ، وَالْحِرَاسَةُ: أَنْ يَصْرِفَ الْآفَاتِ عَنِ الشَّيْءِ قَبْلَ أَنْ تَصِيبَهُ صَرَفًا مُسْتَمَرًّا، فَإِذَا أَصَابَتْهُ فَصَرَفَهَا عَنْهُ سُمِّيَ ذَلِكَ تَخْلِيصًا، وَهُوَ مُصَدَّرٌ، وَالْإِسْمُ: الْخَلَاصُ، وَيُقَالُ: حَرَسَ اللَّهُ عَلَيْكَ النِّعْمَةَ، أَي: صَرَفَ الْآفَةَ صَرَفًا مُسْتَمَرًّا، وَالْحِفْظُ لَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْإِسْتِمْرَارِ، وَقَدْ حُفِظَ الشَّيْءُ، وَهُوَ حَافِظٌ، كَمَا فُرِّقَ بَيْنَ الْحِفْظِ وَالرَّعَايَةِ بِأَنَّ نَقِيضَ الْحِفْظِ الْإِضَاعَةُ، وَنَقِيضُ الرَّعَايَةِ الْإِهْمَالُ، وَالْإِهْمَالُ هُوَ مَا يُؤَدِّي إِلَى الضِّيَاعِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْحِفْظُ صَرَفَ الْمَكَارِهِ عَنِ الشَّيْءِ لئَلَّا يَهْلِكَ، وَالرَّعَايَةُ فَعَلَ السَّبَبِ الَّذِي يَصْرِفُ الْمَكَارِهِ عَنْهُ، وَالْحِمَايَةُ تَكُونُ لِمَا لَا يُمْكِنُ إِحْرَازُهُ وَحَصْرُهُ، مِثْلُ: الْأَرْضِ وَالْبَلَدِ، وَالْحِفْظُ يَكُونُ لِمَا يَحْرُزُ وَيَحْصِرُ⁽³⁾.

الخَوْفُ والخَشْيَةُ:

النَّاظِرُ فِي كُتُبِ اللَّغَةِ يَجِدُ عَدَمَ التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمَا غَالِبًا، وَرُبَّمَا عُدُّوا ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَرَادِفِ، وَلَكِنْ بِالْبَحْثِ وَالتَّدْقِيقِ مِنْ خِلَالِ اسْتِعْمَالَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَجِدُ بَيْنَهُمَا فَرْقًا،

(1) الخطّابي، أعلام الحديث: 1/298، والعسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 531، والحليمي، للنهّاج في شعب الإيمان: 1/239.

(2) عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/394.

(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 205 - 207.

قال الزركشي: لا يكاد اللغوي يفرّق بينهما، ولا شك أنّ الخشية أعلى من الخوف، وهي أشدّ الخوف؛ فإنّها مأخوذة من قولهم: شجرة خاشية، إذا كانت يابسة، وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاء، إذا كان بها داء، وذلك نقص وليس بفوات، ومن ثمّ خُصّت الخشية بالله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝﴾ [الزهد 21].

ومنّ الفروق بينهما: أنّ الخشية تكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي قويّاً، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمراً يسيراً، يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝﴾ [الزهد 21]؛ فإنّ الخوف من الله لعظمته يخشاه كلّ أحدٍ، كيف كانت حاله، وسوء الحساب ربّما لا يخافه من كان عالماً بالحساب، وحاسب نفسه قبل أن يحاسب.

وواصل الزركشي التفرقة بينهما بقوله عند تعليقه على قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، يقول: وفيه لطيفة، وهي أنّ الله تعالى لما ذكر الملائكة، وهم أقوىاء، ذكر صفتهم بين يديه (الخوف)؛ لبيان أنّهم عند الله ضعفاء، ولما ذكر المؤمنين، وهم ضعفاء لا حاجة إلى بيان ضعفهم؛ ذكر ما يدلّ على عظمة الله تعالى، فقال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (1) [الزهد 21].

الكافرون والكفار والكفرة:

أمّا لفظ الكافرون فهو جمع مذكّر سالم؛ يدلّ على القلّة، والكفار والكفرة جمعاً تكسير يدلّان على الكثرة، والكفار أدلّ على الكثرة من الكفرة (2).

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام التفريق بين الكفار والكفرة، يقول محمّد الأمين الخضري: "ومن بديع التّناسب بين معاني الصّيغ ومبانيها ما تراه في وضع الكفار والكفرة موضعهما في سياقات القرآن، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، وقال في حقّ الكفار: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [أولئك هم الكفرة الفجرة ١٤١] (عبس: 40 - 41 - 42)؛ فقد استدعى مقام امتداح المؤمنين بالشّدّة على أعدائهم، ووصفهم بأبلغ الصّيغ الواردة في وصف الشّدّة ﴿أَشِدَّاءُ﴾، وناسبها بأن

(1) الزركشي، البرهان: 4/78.

(2) عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/1007.

يُؤْتَى بأبلغ معاني الكفر ﴿الْكُفَّارِ﴾ لتكون الشَّدة دالة على أبلغ مراتب الشَّجاعة والثَّبات في مواجهة أعتى النَّاس كفرًا، وحرَبًا على المؤمنين، فتناسبت الصَّيغتان معنًى وتقاربتا وزنًا وبناءً، ولم يقصد في سورة عبس المبالغة في وصفهم بالكفر، وإنَّما أريد حصرُ هذه الوجوه الكالحة المسوَّدة يوم القيامة بهؤلاء الكفرة في مقابلة الوجوه الضَّاحكة المستبشرة من المؤمنين، فأدَّى بناء الكثرة ﴿الْكَفَرَةُ﴾ غرضه من تحديد وصف أصحاب الوجوه المظلمة والدَّلالة على كثرتهم إضافة إلى جليل التَّناسب في الوزن والبناء مع الفجرة بعده، والسَّفرة والبررة قبله، فكان وضع كلٍّ منهما في مَوْضِعه دليلًا على إعجاز النِّظم الحكيم⁽¹⁾.

وممَّا يُذكر في هذا المقام بين صيغة: فُعَّالٌ وفَعَّلَةٌ، أنَّ الكُفَّارَ أشدَّ من الكفرة؛ لذلك كان استعمال الكُفَّار في جمع الكافر المضادَّ للإيمان أكثر استعمالاً، قال تعالى: ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: 123]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [البقرة: 161]، وأمَّا الكفرة فهو في جمع كافر النِّعمة أكثر استعمالاً، كما في سورة عبس؛ فسياق السُّورة سياق ذكر النِّعم على الإنسان، لذلك جاء جمع الكفرة؛ لأنَّه في جحود النِّعمة أكثر استعمالاً، فضلاً على أنَّ صيغة فُعَّالٌ أشدَّ من صيغة فَعَّلَةٌ؛ ولذلك جاء لفظ كُفَّار المضادَّ للإيمان على وزن فُعَّالٍ بخلاف كفرة الذي في مقام جحود النِّعمة؛ فإنَّه على وزن فَعَّلَةٌ⁽²⁾.

(1) الخضرِّي، الإعجاز البياني، ص: 194.

(2) الدَّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة، ص: 260.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 9، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-61-3

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 9: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-61-3

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»